تحليل الخطاب الديني في رواية "الخيميائي" لباولو كويلو

د. أحمد زهير رحاحلة *

تاريخ تقديم البحث: ١٤/٨/ ٢٠١٧م. تاريخ قبول البحث: ١٦/٥/٢٠١٨م.

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى بيان الصلة بين الدين والأدب، من خلال تفسير الرموز الدينية والحضارية لعمل إبداعي عالمي، هو رواية "الخيميائي" للكاتب البرازيلي "باولو كويلو"، وترصد الدراسة الرموز الدينية الإسلامية، والرموز الدينية النصرانية، والمؤثرات الميثولوجية والموروثات الشعبية، التي أسهمت في تحديد ملامح الخطاب الذي تنهض به الرواية.

وتتوسل الدراسة إلى تحقيق غايتها بتوظيف أدوات منهج البحث التحليلي والوصفي والمقارن، التي تسهم في تحقيق أهدافها، إلى جانب التحليل الرمزي لأبرز العناصر السردية التي استعان بها الروائي في بناء رؤيته الكونية، وتشكيل فلسفته الدينية.

وانتهت الدراسة إلى بيان أبرز ملامح الخطاب الديني، وملامح توظيف الدين الإسلامي، والدين النصراني، والمؤثرات الحضارية والفكرية العربية في الرواية، والكشف عن صورة العربي/ المسلم.

الكلمات الدالة: الأدب – الدين – رواية الخيميائي.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية السلط للعلوم الإنسانية، جامعة البلقاء التطبيقية.
حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Discourse analysis of “The Alchemist” by Paulo Coelho

Dr. Ahmad Zuhair Rahaleh

Abstract*

The study investigates the relationship between literature and religion by interpreting the religious and cultural symbols of an international creative work which is “The Alchemist” by the Brazilian writer Paulo Coelho. The study scrutinizes the Islamic, Christian symbols, the mythological effects and heritage of people which contributed to framing the discourse of the novel.

The study also strives to implement the analytic, descriptive and contrastive approaches which help fulfill its objectives along with the symbolic analysis of the prominent narrative elements that the writer made use of in the process of building his universal novel and religious philosophy.

The study came up to framing the most prominent elements of the religious discourse and the elements of using Islam, Christianity, the Arabic intellectual contributions to the novel and uncovering the image of the Arab/Muslim.

Keywords: Literature, religion, the alchemist

مقدمة:

ما زالت العلاقة بين الدين والأدب موضع جدال، بين منكر لوجود هذه العلاقة، وآخر مقر بها، وخلاصة البحث في هذه الجزئية أن "العلاقة بين الدين والأدب وثيقة جدا، ولم تنقطع على مر العصور"[(١)]، ومع ذلك فإن الدراسات والأبحاث التي تلتفت إلى محاولة وضع تفسير ديني للأدب تُعدّ قليلة جدا، ولعل هذا مبعثه الرفض الشائع لطروحات ربط الدين بالأدب من جهة، والخوف من أن تتحول تلك الدراسات والتفسيرات إلى وثائق دينية وأحكام شرعية من جهة أخرى تنزع عن الأدب أدبيته وجمالياته.

إن وعي الأديب بالدين سيترك أثرا في إبداعاته الأدبية سواء أكان هذا الوعي إيجابيا أم سلبيا، بقصد أو دون قصد، ولا يكاد عمل إبداعي يخلو من حضور للدين وقيمه، مع تفاوت في مستوى هذا الحضور، بل إن الطروحات النقدية الحداثية ترى أن الدين وتجلياته تعد مصدرا من مصادر التجربة الإبداعية، وقد يرقى ليكون نقطة الارتكاز في بناء العمل، كما سنعاين في رواية "الخيميائي"، للكاتب البرازيلي "باولو كويلو".

ولا تخلو المؤثرات الدينية في الأعمال الأدبية من مظاهر التقاطع بين الأنا والآخر دينيًا، إلا أنها في كثير من الأحيان تبقى تقاطعات قائمة على مقارنات جزئية منتقاة، أو مقاربات لأنظار فلسفية عامة من حقل المشترك بين الديانات، وهذا هو ما دفع الشاعر والناقد ت.س إليوت للقول: "ينبغي على النقد الأدبي أن يكتمل بالنقد من موقف أخلاقي لاهوتي محدد لا لبس فيه"[(٢)]، وهنا ينبغي التنبيه على أهمية الوعي الديني في تلقي الأعمال الأدبية، سيما تلك التي ترتكز على التوظيف الديني في بنائها، ونجد هذا الوعي عند إليوت صريحا في الإشارة لأعمال أدبية تشبه رواية "الخيميائي" التي تفيض بالخيال والأسطرة، فيقول: "في عصر كعصرنا، حيث لا اتفاق كذلك، يكون ألزم للقراء المسيحيين أن يتفحصوا ما يقرأون، وعلى الأخص ما يكون من أعمال الخيال ذات المعايير الأخلاقية

(١) مقابلة، جمال، (٢٠١٠)، **بين الدين والأدب: الخيال والمثال**، مجلة ثقافاتنا للبحوث والدراسات، العدد (٢٥)، إيران،ص١٩٥.وهو في الأصل بحث مقدم إلى مؤتمر الأدب الإسلامي: الواقع والطموح جامعة الزرقاء الأهلية ٤-٦ أيار١٩٩٩، ونشر في مجلة " الكلمة " ص٧١-٨٠، ع ٢٣، ربيع ١٩٩٩، بيروت.

(٢) سكوت، ويلبريس، (١٩٨١)، **خمسة مداخل إلى النقد الأدبي**، ترجمة: عناد غزوان وجعفر صادق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد بغداد، ص٤٧.

واللاهوتية الجبلية، عظمة الأدب لا تتقرر بالمعايير الأدبية وحدها"[١]، ومثل هذه الطرحات يعدّ مسوغا ودافعا لمحاولة تقديم قراءة دينية تعين على فهم أعمق للأعمال الأدبية.

من هذا المنطق، فإن الدراسة تسعى إلى تحقيق بعض الأهداف، وإلى الإجابة عن بعض الأسئلة، يتلخص أهمها في الآتي:

- رصد المصادر الأساسية التي استقى منها باولو كويلو رواية الخيميائي.
- استجلاء سيميائية الرموز المشحونة في الرواية.
- تحليل صورة الحضور العربي والإسلامي في الرواية.
- تحليل الخطاب الديني في الرواية وتكوين ملامحه العامة.

واعتمدت الدراسة لتحقيق أهدافها على المنهج التحليلي، إلى جانب الاستعانة بأدوات من مناهج أخرى، من أهمها: المنهج الوصفي، والمنهج السيميائي، والمنهج المقارن، والتناص، وتحليل الخطاب، وذلك كله وفقا للجزئيات والمعالجات التي تقف عليها الدراسة.

باولو كويلو ورواية "الخيميائي"[٢]

مع أن الروائي والرواية أشهر من التعريف بهما إلا أن ذلك لا يمنع من إدراج سطور تعريفية، فباولو كويلو المولود في العاصمة البرازيلية ريو دي جانيرو عام ١٩٤٧ بات واحدا من ألمع الروائيين على مستوى العالم، بدأ كاتبا شعبيا، ومسرحيا، وصحفيا، وانضم إلى "الهيبي" وعمل في تأليف الأغاني الشعبية للفنانين البرازيليين، وجال العالم بحثا عن الحركات الأخوية السرية، ثم قام برحلة حج مشهورة سيرا على الأقدام ألهمته التفرغ للإبداع، وقام بتوثيقها في عمل أطلق عليه عنوان "الحج"، استمر أثرها في كثير من أعماله اللاحقة ومنها رواية "الخيميائي"، و"الزَّهير".

حقق باولو كويلو شهرة عالمية فائقة، جعلته ضمن الأكثر مبيعا وانتشارا في العالم، ودخل موسوعة جينيس للأعمال الأكثر ترجمة في العالم، وانتشرت أعماله في أكثر من ١٥٠ دولة، وتُرجمت إلى ما يقارب ٧٠ لغة، وما زال يسير في ذات المسار.

(١) ويلبريس، خمسة مداخل إلى النقد الأدبي، ص٤٧.

(٢) أخذنا معلوماتنا عنه وعن الرواية مما هو مطبوع على أغلفة رواياته المترجمة للغة العربية، ومقدمات النسخ العربية الصادرة عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بوصفها الوكيل العربي الرسمي لأعمال باولو كويلو.

ذكر عدد من النقاد والصحفيين الذين بحثوا في سيرة باولو كويلو تفاصيل كثيرة عن حياته، بقيت لوقت طويل مجهولة، لعل في مقدمتها أنه قد أُدخِل في مرحلة المراهقة إلى المصحة العقلية ثلاث مرات، وكان يفرُّ منها ويعود، وفشل في الدراسة الجامعية أكثر من مرة، وتحول إلى الأفكار الماركسية ثم تركها، ومارس السحر الأسود، وأدمن المخدرات، ودخل السجن ثلاث مرات بسبب نشاطه السياسي، وقام برحلات عديدة انتهت به إلى تجديد إيمانه بالدين، وقد وثق كثيرا من هذه المراحل في أعمال روائية مستقلة(١)، وشكلّت رواية "الخيميائي" نقطة تحوّل جوهرية في مسيرته باولو كويلو الإبداعية، وفي مسار الرواية الحديثة، وحققت نسبة مبيعات قياسية، إذا تعد ثاني أكبر رواية مبيعا في العالم بعد رواية "شيفرة ديفنشي" لدان براون.

أولا: تحليل السياق الخارجي للخطاب الديني ورموزه.

- في أصل الرواية ومصادرها

قبل البحث في أصل الرواية ومصادرها يبدو لزاما إثبات ملخص أساسي للرواية، لغايات المقارنة والتأويل لاحقا، فأحداثها تبدأ من إسبانيا، وفي الريف الأندلسي تحديدا، تحكي عن راع شاب اسمه "سانتياغو" كان يلجأ دائما إلى كنيسة مهجورة هو وقطيعه، وحلم أكثر من مرة بكنز مدفون بجانب الأهرامات المصرية.

يدخل الراعي في صراع داخلي بين اتّباع الحلم أو الانقياد للواقع، إلى أن يقابل ملكا غامضا، قبل أن يخبره الملك بأنه نجح في اكتشاف "أسطورته الشخصية"، وأن على "سانتياغو" أن يتبع "أسطورته الشخصية" حتى النهاية، وبذلك بدأ رحلة مثيرة للبحث عن الكنز. باع قطيعه ووجه وجهه صوب الشرق، لكنه يتعرض هناك للسرقة، وبعدها استطاع أن يعمل عند تاجر كريستال عربي مسلم، ليتسنى له توفير بعض المال لاستكمال رحلته.

يَنْظم الراعي لقافلة كانت في الطريق لعبور الصحراء، ويقضي الأيام الطويلة في التفكير، وفي الاستماع لصوت قلبه، ولصوت الصحراء، بدأ "سانتياغو" يفهم أن للعالم روحا، وأنه جزء من هذه الروح.

تصل القافلة إلى إحدى الواحات، ويقابل "سانتياغو" إحدى الفتيات، ويقع في غرامها من النظرة الأولى. ويقابل أيضا شخصا غامضا يعمل خيميائيا في الواحة ويقوم بتحويل المعادن إلى ذهب، ويعلمه دروسا مهمة عن الحياة، وبعد عدة مغامرات وأحداث عجائبية يصل الراعي الشاب إلى

(١) انظر الحوار الصحفي الذي أجراه معه، هشام يونس، صحيفة الرياض، العدد ١٣٤٨٥، الخميس ٢٠٠٥/٥/٢٦.

أهرامات مصر، ثم يبدأ يحفر في الرمال بحثا عن كنزه، وقبل أن يبلغ عمقا كبيرا، تمسك به عصابة من اللصوص، وينهالون عليه ضربا ثم يسرقون ما معه من مال. ويجبروه على مواصلة الحفر، وعندما لم يعثروا على أي كنز، قال له زعيم العصابة: "لن تموت، سوف تعيش، وتعلم أنه ليس من حق المرء أن يكون غبيّا بهذا القدر، فهنا بالضبط، وفي هذا المكان الذي أنت فيه الآن ومنذ عامين تقريباً، كنت قد حلمت بحلم تكرر، حلمتُ أنه كان ينبغي عليَّ الذهاب إلى إسبانيا، أبحث في الريف عن كنيسة صارت أطلالاً، حيث كان الرعاة يذهبون إليها غالباً مع أغنامهم، وحيث تنبت شجرة جميز في "الموهف"، وأنني لو حفرت عند أسفل شجرة الجميز، لوجدتُ كنزاً مخبّأ، لكنني لستُ غبيّاً للحد الذي يجعلني أجتاز الصحراء كلّها، فقط لأنني حلمت بالحلم نفسه مرّتين، ثم انصرف. وهكذا عرف الراعي مكان الكنز، وعاد إلى الكنيسة ووجده، ثم تنتهي الروايه عندما يبدأ رحلة جديدة للصحراء طلبا للفتاة التي أحبها.

وفي كتاب ألف ليلة وليلة، وتحديدا في الليلة الحادية والخمسين بعد الثلاثمئة، نجد القصة الآتية:

"مما يحكى أن رجلا من بغداد كان صاحب نعمة وافرة ومال كثير، فنفذ ماله وتغير حاله، وصار لا يملك شيئا، ولا ينال قوته إلا بجهد جهيد فنام ذات ليلة، وهو مغموم مقهور فرأى في منامه قائلا يقول له: إن رزقك بمصر، فاتبعه وتوجه إليه، فسافر إلى مصر، فلما وصل إليها أدركه المساء، فنام في مسجد، وكان بجوار المسجد بيت، فقدّر الله تعالى أن جماعة من اللصوص دخلوا المسجد، وتوصلوا منه إلى ذلك البيت، فانتبه أهل البيت على حركة اللصوص، وقاموا بالصياح فأغاثهم الوالي بأتباعه، فهربت اللصوص، ودخل الوالي المسجد فوجد الرجل البغدادي نائما في المسجد، فقبض عليه، وضربه بالمقارع ضربا مؤلما حتى أشرف على الهلاك، وسجنه فمكث ثلاثة أيام في السجن، ثم أحضره الوالي وقال له: من أي البلاد أنت؟ قال: من بغداد. قال له: وما حاجتك التي هي سبب في مجيئك إلى مصر؟ قال: إني رأيت في منامي قائلا يقول إن رزقك بمصر؛ فتوجه إليه، فلما جئت إلى مصر وجدت الرزق الذي أخبرني تلك المقارع التي نلتها منك. فضحك الوالي حتى بدت نواجذه وقال له: يا قليل العقل، أنا رأيت ثلاث مرات في منامي قائلا يقول لي: إن بيتا في بغداد بخط كذا، ووصفه كذا، بحوشه جنينه تحتها فسقية بها مال له جرم عظيم، فتوجه إليه وخذه فلم أتوجه وأنت من قلة عقلك سافرت من بلدة إلى بلدة من أجل رؤيا رأيتها وهي أضغاث أحلام! ثم أعطاه دراهم وقال له: استعن بها على عودك إلى بلدك، فأخذها وعاد إلى بغداد وكان البيت الذي وصفه الوالي هو بيت ذلك الرجل، فلما وصل إلى منزله حفر تحت الفسقية فرأى مالا كثيرا ووسع الله عليه رزقه"[1].

(١) **ألف ليلة وليلة**، الليلة ٣٥١، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨، ص٥٩٤.

وفي تتبع أعمق للقصة التراثية نجد أنها قد وردت في غير مصدر، أقدمها كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي[١]، ووردت أيضا في كتاب حدائق الأزهار لابن عاصم الأندلسي[٢]، وكذلك في تاريخ العدواني[٣] وفي غيرها، إلى جانب ورد القصة ذاتها في المرويات الشعبية العربية[٤].

- **أوجه التطابق**

يلخص ياسر منجي أوجه التطابق بين القصة التراثية ورواية "الخيميائي" في النقاط الآتية[٥]:

١. كلا البطلين يتكرر بمنامهما حلم يلّح على وجود كنز ما ينتظرهما لاحتيازه.

٢. الحصول على الكنز في القصتين يستلزم خوض رحلة غير محددة المعالم.

٣. كلتا الرحلتين إلى مصر تحديداً.

٤. عند الوصول لموطن الكنز يقع البطلان–العربي التراثي واللاتيني المحدث– في قبضة غاشمة.

٥. كلتا القبضتين توقعان عقاباً بدنياً مبرحاً بالبطلين.

٦. يسفر تفتيش موطن الكنز في القصتين عن لا شيء.

٧. يسخر الشرطي في القصة العربية من سذاجة البطل وإخلاصه الطفولي لحلمه، وهو نفس رد فعل زعيم العصابة تجاه "سانتياغو".

٨. تقود السخرية بطريقة عرَضية في كلتا القصتين إلى بوح الشرطي/ رئيس العصابة بحلم مماثل يتكرر بشكل مماثل.

(١) التنوخي، القاضي أبو علي المحسن، (ت٣٨٤هـ). **الفرج بعد الشدة**، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤، ج١، الباب السادس، ص١٧٥–١٧٦.

(٢) الأندلسي، ابن عاصم الغرناطي، (ت٨٢٩هـ). **حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر**، تحقيق: عفيف عبد الرحمن، دار المسرة، بيروت، ١٩٨٧، ص٣٨٣.

(٣) العدواني، محمد بن عمر، (ت القرن ١٧ م). **تاريخ العدواني**، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر،٢٠٠٧، ص٢٨٧–٢٨٩.

(٤) الجهيمان، عبد الكريم، (١٩٨٠)، **أساطير شعبية من قلب الجزيرة العربية**، ط١، دار أشبال العرب، الرياض، ج٢، ص١٦٩.

(٥) منجي، ياسر، (٢٠٠٥)، **الحضور التراثي العربي في أعمال باولو كويلو**، الموقع الرسمي:
http://altculture.blogspot.com01/2005infernal-criticism.html

٩. افتخار الشرطي وزعيم العصابة على البطلين بأنهما أكثر نضجاً منهما، ومن ثم فهما لا يلتفتان مثلهما إلى أمثال هذه الترهات.

١٠. ينتبه كلا البطلين إلى أن موطن الكنز في روايتي الشرطي وزعيم العصابة هو ذاته موطنهما الأصلي الذي خرجا منه سعياً وراء كنزهما/ الحلم.

١١. تكون هذه المفارقة بمثابة إشارة التأكيد التي تلح على وعي البطلين كي يختتما فعل الرحلة في عودة دائرية إلى نقطتي انطلاقهما.

١٢. تسفر العودة المحملة بخبرات الرحلة/الوعي الجديد إلى العثور على الكنز وتحقق فعل النبوءة.

إن التطابق الأساسي بين الحكايتين من الأمور لا تحتاج إلى تأويل أو استنطاق، إلا أن الجدل سيقع في توصيفنا لما قام به "باولو كويلو"، هل هو إغارة أم تناص؟ هل سرق الكاتب العالمي قصة تراثية عربية أم أنه استلهمها؟ ولعل خصوصية الحضور العربي في رواية "الخيميائي" هي ما دفع كثيرا من الباحثين إلى النظر في المسألة، فذهب بعضهم إلى أن ما قام به كويلو لا يعدّ سرقة أو إغارة، بل "تعدّ الرواية من أكثر الأجناس الأدبية تجسيما للتناص، والتفاعل، والتداخل، وما نقصده هو: التناص، وليس التلاص أو سرقة أو نهب وانتحال كما ذكر كثير من الدارسين لرواية الخميائي، وإنما ما يتجلى لنا بعد قراءة نصوصه الروائية من جمال ذلك الفسيفساء المنتشر عبر السطور من شتى الفنون والبيئات والعصور والأعراف حيث يحاكي برواياته تلك النصوص، وتحاورها لتبنيها وتشكلها من جديد وفق مضمونها برؤيا الكاتب المنفتحة على عوالم روحية وصوفية وفلسفية عميقة بعمق نظرة باولو كويلو للحياة والكون والطبيعة وإشاراتها وشفراتها وعلاماتها التي كثيرا ما يغفل البشر عنها"[(١)]، ومع أن هذا الطرح لا يحمل حجج مقنعة، وتفسيرات منطيقة، إلا أنه يبقى يمثل ذلك التيار، ويقول الباحث حامد أبو أحمد في تصريحات لوكالة أنباء الشعر إن أي حديث عن سرقات كويلو للتراث العربي: "هو محض هراء وافتراء على كويلو، قد يكون كويلو قرأها أو استلهم منها عمله، كغيره من أدباء أمريكا اللاتينية والذين كانت أعمالهم في الواقعية السحرية مستلهمة بشكل كبير من تراثنا العربي وخاصة "ألف ليلة وليلة" مثلا، لكن هذا لا يعني أنهم سرقوا من تراثنا، فالاستلهام شيء والسرقة أو السطو على

(١) داود، فاطمة، (٢٠١٥). **التجليات التناصية في رواية الخيميائي**، مقال منشور في صحيفة الصباح الجديد، ٢٠١٥/١٠/١٠، العراق، على الرابط: http://newsabah.com/newspaper/63090

التراث شيء آخر، وكويلو من الممكن أن يكون استلهم من قصة التنوخي، وغيره أيضا لكن الحديث عن سرقة محض افتراء عليه"[١].

وفي الطرف المقابل، نجد عددا من النقاد والباحثين يذهب إلى أن ما قام به كويلو هو السرقة التي لا تحتاج إلى دليل، ويقدم الباحث السعودي عبد الله محمد الناصر ورقة نقاشية عنوانها "السرقة من التراث العربي–رواية الخيميائي نموذجا"[٢]، يتهمه فيها بسرقة روايته من التنوخي، ويذهب المذهب ذاته على نحو مفصل جدا الباحث مولاي حفيظ علوي، وفي هذا السياق يقول:" يمكن إذن أن نطرح أسئلة مشروعة ترتبط بعلاقة الآخر بمنتوجنا الثقافي، وحدود التأثر والتأثير، وكذا رؤيتنا للإبداع العربي ماضيا وحاضرا، لقد لجأ باولو كويلو إلى الاقتباس من نص/نصوص عربية دون الإحالة على صاحبه/ أصحابها، أو الإشارة إليه/ إليها، من قريب وبعيد"[٣].

إن مجمل القراءات التي وقفت عليها الدراسة تكشف أن النقاد قد تباينوا في مواقفهم من باولو كويلو على الرغم من هذه الشهرة الاستثنائية التي عرفها الكاتب وروايته، فمنهم من لم يجد فيه موهبة روائية متميزة، بل مجرّد كاتب تقليدي، يعتمد على فلسفته الروحية، والتجارب الذاتية، والروايات الشعبية، ويضعها في كتب تحقّق نسبة مبيعات خيالية، ومنهم من يراه" ظاهرة جديدة استطاعت أن تشغل فراغا مهما ألا وهو الجانب الروحي الديني عند القراء، ويصل الأمر عند بعض النقاد إلى حد اعتباره ممثلا لثالث موجة جماهيرية في القرن العشرين، أي بعد فرويد وماركس"[٤].

جاءت كلمة الفصل في إثبات مصدر رواية الخيميائي من صاحبها ذاته، وتحديدا في رواية "الزَّهير" حيث يقول: "ذات عشية، أقع على قصة مشوقة في ألف ليلة وليلة، فيها أجد رمز دربي الخاص، شيء يساعدني على فهم كياني، ولماذا طال لاتخاذ قرار كان بانتظاري منذ الأزل، أستخدم

(١) أبو أحمد، حامد، (٢٠١٢)، **حوار صحفي**، أجرى الحوار: ولاء عبد الله،٢٠١٢/٢/١٩، وكالة أنباء الشعر، على الرابط: http://www.alapn.com/ar/news.php?cat=3&id=21276

(٢) الناصر، عبد الله، (٢٠١٢)، **ندوة أدبية**، المكتبة الجامعية محمد السقاط، الأربعاء ٢٠١٢/٢/١٥،جامعة الحسن الثاني، الرباط.

(٣) حفيظ العلوي، مولاي، (٢٠١٢). **تناص الحكي في رواية الخيميائي أو باولو كويلو سارق حلم العرب**، جامعة محمد الخامس، أكدال، الرباط،ص٢٧.

(٤) الرملي، محسن، (٢٠١١)، **باولو كويلو: الدين هو تجربة جماعية مشتركة للإيمان**، كتاب العربي، الكويت، العدد ٨٣، ص٢٧٩.

تلك القصة كأساس لقصة أخرى عن راعٍ ينطلق سعيا وراء حلمه، كنز مخبأ في أهرامات مصر، أروي فيها عن الحب الذي ينتظره هناك"[١].

إن محاورات النقاد العرب واعترافات الكاتب تجعل الدراسة تستنتج الآتي:

- ما زالت علاقة العرب بتراثهم بحاجة إلى مراجعة ومكاشفة، فآثار القطيعة المعرفية أظهرت جهل المثقف العربي بكنوز تراثه، واستغرق الأمر سنوات حتى بدأت بعض الأصوات تشير إلى متح الكاتب البرازيلي روايته من التراث العربي.
- تكشف الوقائع أن الرواية قد صدرت في عام ١٩٨٨، ولم يشر صاحبها في أول الأمر إلى مصدرها، ولعله لم يكن يحلم أو يتوقع أن يصل إلى العالمية، أو أن تترجم روايته إلى العربية، بل إن الناشر الأول للرواية كاد يتراجع عن نشرها، ثم عاد بعد نشرها ليعيد إلى صاحبها حقوق النشر بعد أن لم تتجاوز المبيعات ٩٠٠ نسخة[٢].
- بعد الانتشار الذي حققته الرواية، وبفضل التقدم الهائل في عالم الاتصالات الإعلاميات، بدأ المؤلف يتواصل مع العرب، لأسباب، منها تنظيم الأمور القانونية الخاصة بترجمة أعماله وتوزيعها، وهذا التواصل جعله على تماس مباشر مع النقاد والصحفيين والأدباء العرب، فبدأ يلمح ويصرح بتقديره العميق للحضارة العربية والإسلامية، وإعجابه الشديد بمنابع التراث العربي وخاصة كتاب ألف ليلة وليلة، والنبي لجبران خليل جبران.
- الاعتراف الذي ورد في رواية "الزهير" جاء متأخرا جدا، ذلك أن هذه الرواية قد صدرت في عام ٢٠٠٤، وهو الأمر الذي يثير سؤالا عن قيمة هذا الاعتراف بعد كل هذا الوقت.
- بصرف النظر عن أوجه التطابق الواضحة، فإن باولو كويلو وصل في روايته إلى عالمية لا تقل عن عالمية كتاب ألف ليلة وليلة بفضل عبقريته البنائية.

- أوجه الاختلاف

قد تبدو أوجه الاختلاف بين رواية "الخيميائي" وأصلها العربي في ظاهرها اختلافات هامشية، كتغير الأسماء، والفضاء المكاني والزماني، وتمطيط السرد، وإضافة الأحداث وتكثيف عنصر

(١) كويلو، باولو، (٢٠٠٤). **الزَّهير**، ترجمة: رنا الصيفي، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ص٣٧.

(٢) انظر: إيرياس، جان، (٢٠٠٧). **باولو كويلو–اعترافات مسافر حاج**، ترجمة: عز الدين محمود، ط١، دار ورد، دمشق.

التشويق، إلى جانب الاختلاف في اللغة السردية وجمالياتها، وهي اختلافات حاول من خلالها الكاتب أن يحقق لروايته تميزها وتفردها، وهو أمر لا تنكره الدراسة، أو تقلل من شأنه.

إلا أن الدراسة ترى أن هناك اختلافات قد تبدو هامشية، لكنها جوهرية في تحديد ملامح الخطاب الديني الذي قامت عليه الرواية، وكذلك في تقديم صورة الآخر/العربي، يمكن لنا الوصول إليها من خلال المقارنة الآتية:

في الحكاية العربية	في رواية "الخيميائي"
تبدأ الرحلة من بغداد إلى مصر.	تبدأ من الكنيسة غربا إلى مصر شرقا.
ينفق البطل ماله كله في أثناء الرحلة.	يسرق اللصوص العرب مال البطل.
البطل سلبي عاجز بعد نفاد ماله.	البطل إيجابي ويعمل لكسب المال.
يلجأ البطل المفلس إلى المسجد.	يلجأ البطل إلى القبائل العربية المتناحرة في الصحراء.
لا يتعلم البطل شيئا من رحلته.	يتعلم البطل من الرحلة الحكمة والفلسفة الوجودية.
يقبض عليه رجال السلطة.	يقبض عليه رجال العصابات.
يعود ويجد الكنز في بيته.	يعود ويجد الكنز في الكنيسة المهجورة.

إن التغيرات التي قد تبدو هامشية قد جاءت بوعي عميق من باولو كويلو لتتناغم مع مسارات السرد، وتشكيل الخطاب الروائي، وتخرج الخيميائي من دائرة القصة التراثية العربية، لتصبح شجرة مستقلة دون النظر إلى بذرتها الأولى.

- **موقف باولو كويلو من الإسلام والحضارة العربية.**

إن أي حديث في هذه الجزئية يجب أن يكون ضمن مسارين، وضمن زمانين، أما المساران، فهما: المعلن والمضمر، وأما الزمانان، فهما: زمن كتابة الرواية، والزمن الحاضر، والتوازي والتقاطع حاصل فيهما كما سيتبين، وموقف كويلو المعلن تدل عليه أقواله وأفعاله ومواقفه، مقابل موقف مضمر نستنبطه من سيميائية الحضور والتجلي في أعماله الروائية.

أما على مستوى الزمن فيمكن القول إن باولو كويلو ثمانينات القرن الماضي ليس هو باولو كويلو اليوم، وإذا بدأنا من الموقف الأحدث زمانيا –المعلن والمضمر– سنجد الرجل ينحاز إلى بعض القضايا العربية كغزو العراق في عام ٢٠٠٣، وطروحات الحرب على الإرهاب، وغيرها، ويعلن عبر

وسائل مختلفة عن إعجابه وتقديره للحضارة العربية ثقافيا وأدبيا، أما دينيا فيبدو أن الرجل قد صار أكثر اهتماما بالدين الإسلامي، ويسجل له المواقف المشرقة من القرآن الكريم، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والرموز الدينية الإسلامية، والتفاعل مع بعض المرتكزات الإسلامية كفكرة التوحيد، والقضاء والقدر، وبعض الفلسفات الإسلامية الروحانية كالتصوف.

نلمح قدرا من الذكاء عند كويلو في تواصله مع دور النشر العربية التي امتلكت حقوق الترجمة والنشر والتوزيع القانونية، ونجده يكتب مقدمة خاصة بالنسخ العربية من رواياته وخاصة التي يدخل العنصر العربي والإسلامي في بنائها، وهي مقدمات لا نجدها في النسخ غير العربية، ولعل أشهرها تلك القصة الصوفية التي نجدها تحت عنوان (مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية)[١]، وتبدأ بهذه المقدمة: "كان أحد كبار متصوفي الإسلام وسوف ندعوه هنا حسن يُحتضر عندما سأله تلميذ من تلاميذه: من كان معلمك أيها المعلم؟..."[٢]، وهنا يظهر لنا سؤال مشروع: لماذا يكتب باولو كويلو هذه المقدمة للقارئ العربي دون سواه من القراء؟ هل في ذلك إيهام له بصلته الروحانية بالإسلام؟ أم أن الطروحات الدينية التي انشغل بها كويلو في أعماله تتطلب تقديما دينيا خاصا لإرساء دعائم خطابه الديني؟

أما على مستوى زمن كتابة الرواية فيمكن القول إن باولو كويلو في "الخيميائي" لم يكن لديه المعرفة العميقة بالإسلام، ومع ذلك فإن الرجل لا يتردد في أن يكتب رواية "الخيميائي" التي هي رواية عن الإسلام من منظور نصراني، وكل ما كان يعرفه الرجل مصدره المرجعية الدينية الكاثوليكية، والفهم السطحي لروايات ألف ليلة وليلة، وكتاب النبي لجبران خليل جبران، والصورة النمطية الراسخة للحضارة العربية وإنسانها، ودليل ذلك نأخذه من باولو كويلو ذاته الذي يقول في حوار صحفي أجري معه نهاية عام٢٠١١: "أنا لا أدعي بأنني أعرف الإسلام بعمق، لكني أعرف أن الثقافة العربية جلبت الكثير الى العالم في ميادين الفن والعلم والفلسفة والطب،...، الثقافة العربية تقيم اعتباراً كبيراً للأمور الخفية، لما هو غامض وسرّي. أنا ككاتب أحتاج لمثل هذه الرؤية المخالفة"[٣]، وهذا التصريح يقودنا

(١) كويلو، باولو، (٢٠٠٠)، **الشيطان والآنسة بريم**، ترجمة: جواد صيداوي وبسام حجار، ط ٩، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ص٧.

(٢) هذه القصة نجدها في سلسلة روايات باولو كويلو المترجمة للعربية، كما في روايات: الشيطان والآنسة بريم، وألف، وبريدا، وساحرة بورتوبيلو، وغيرها.

(٣) بركات، نجوى، (٢٠١١)، **حوار صحفي مع باولو كويلو**، صحيفة الحياة، العدد ١٤١٣٣، تاريخ ٢٠١١/١١/٢٥، ص١٦.

للقول إن كويلو في زمن كتابة "الخيميائي" كان بعيدا جدا عن فهم الثقافة والحضارة العربية والدين الإسلامي، كما سنبين من المغالطات الثقافية والدينية التي قامت عليها "الخيميائي".

ثانيا: تحليل السياق النصي للخطاب الديني ورموزه

الخطاب الديني وتشكيل الوعي والوعي المضاد

على الرغم من الاستنكار العام لبعض الدارسين أن تكون رواية "الخيميائي" رواية عن الإسلام، إلا أن باولو كويلو يصرح بذلك في حديثه لصحيفة الحياة اللندنية، ويقول:" بالنسبة لي، "الخيميائي كتاب عن الإسلام"[(١)]، وإذا تركنا قول كويلو وتابعنا القول إن رواية الخيميائي لا تقصد الإسلام والحضارة العربية، فهذا القول سيكون مقبولا شرط الوعي بأنه سيقود إلى النتيجة الأولى، أي أن الرجل أراد أن يقدم النصرانية –الكاثوليكية– من خلال إبراز قيم التضاد، واستفزاز الذات النصرانية القلقة للوعي بمصادر السكينة الروحية الحاضرة عند الآخر، وبإعادة بناء الرؤية التي تنهض بها رواية "الخيميائي"، نجد أن جذور الرؤية تعود لحالة التشظي والقلق والألم التي عاشها كويلو قبل أن يجد الخلاص، وتفسير ذلك نفهمه من كلام كويلو الذي يقول: "ككل أبناء جيلي كنت "هيبيّاً" في شبابي، لكني كنت في بحث دائم عن الحقيقة وعن معنى آخر للحياة. أنا ولدت في عائلة كاثوليكية، لكني في مرحلة ما اعتنقت البوذية. فيما بعد، جرّبت الكثير من المذاهب الأخرى لأني لم أكن أجد الجواب على الأسئلة الوجودية التي كانت تؤرقني. في الوقت نفسه، كنت أحلم بأن أصبح كاتبا، لكني كنت أؤجل موعد تحقيق حلمي ذاك لإيماني الراسخ باستحالة تحقيقه. أنا إنما أحكي عن ذلك لأن الأمرين متصلان فيما بينهما. إذن، كنت في وضع عاطفي ومعيشي جيد في تلك الأيام، لكني كنت تعيساً في شكل كبير، ذات يوم، قررت ترك كل شيء، بيتي وعملي وبلادي، وقمت مع زوجتي برحلة حول العالم. لدى عودتي، أسست داراً صغيرة للنشر. لكن القلق استمر في داخلي، إلى أن قررت القيام برحلة الحج إلى مزار القديس جاك دو كومبوستيلا، وهي رحلة تاريخية تنطلق من جنوب فرنسا وصولا إلى إسبانيا. لا أدري من أين جاءتني هذه الفكرة، لكنها كانت أشبه بحاجة لم أتمكن من مقاومتها، حاجة ملامسة البساطة التي تقوم في قلب الحياة. مشيت خلال ٤٦ يوما استرجعت خلالها إيماني الأصلي ككاثوليكي وعدت إلى جذوري. في نهاية الرحلة قلت، يجب أن أتخذ قراري. عمري اليوم ٣٩ عاما. حلمي هو أن أصبح كاتبا. ربما فاتني الوقت لتغيير حياتي، ولكن عليّ أن أحاول. هكذا كتبت عملي الأول وكان عن رحلة الحج تلك"[(٢)]، لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فرواية الخيميائي هي العمل الثاني لكويلو

(١) بركات، **حوار صحفي مع باولو كويلو**، ص١٦.

(٢) بركات، **حوار صحفي مع باولو كويلو**، ص١٦.

بعد حجه المقدس، وترى هذه الدراسة أن رواية الخيميائي، تعكس رحلة الحج المقدس –روحيا– عند كويلو بعد أن حج بجسده سيرا على الأقدام، وترى الدراسة كذلك أن بطل رواية الخيميائي الراعي "سانتياغو" هو ذاته باولو كويلو الذي تماهى مع شخصية القديس "سانتياغو" الذي حج إليه باولو كويلو، ومما يدلل ذلك ما نجده في بداية الرواية عندما يتحدث بطلها الراعي "سانتياغو" عن كيفية تعلمه للقراءة والكتابة فيقول على لسان البطل: "في نيته هذه المرة أن يشرح للفتاة كيف بإمكان فلاح بسيط أن يعرف القراءة؟ فحتى السادسة عشرة تردد إلى مدرسة إكليريكية، وكان والداه يرغبان في أن يجعلا منه كاهنا، ليغدو فخرا لذويه الريفيين البسطاء، الذين يكدحون من أجل الطعام والماء، مثل خرافه تماما، درس اللاتينية والإسبانية واللاهوت، ولكنه كان يحلم منذ نعومة أظفاره بأن يخبر الحياة، وذلك شيء أكثر أهمية من معرفة الرب وآثام البشر"[(١)]، وهو تماما ما حدث مع كويلو في مرحلة الطفولة والمراهقة، بل إنه يقر بذلك في بعض الحوارات، ويقول:" بالطبع في كتاب الخيميائي، أنا الراعي، وأنا تاجر الكريستال، بل وحتى فاطمة"[(٢)].

ومن ينظر في مقدمات روايات كويلو وعتباتها النصية الموازية من أولها إلا آخرها، سيجد أن الكاتب يبدأها دائما بأقوال مقتبسة من الكتاب المقدس، بل إنه أحيانا يقتبس أكثر من قول قبل أن يبدأ السرد الروائي، وهذا النسق حاضر حتى في النسخ المترجمة، وهو أمر لم يتخل عنه الكاتب في أي طبعة من طبعات روايته، على نحو يدلل أن هذا المفتتح الديني يؤسس لتناص مع مضمون العمل الروائي، وصاحب العمل.

في محاولة فك ترميز الصورة والتلفظات الدالة على ملامح الخطاب الديني في رواية الخيميائي، يمكن القول إن كويلو كان مدفوعا بإيمان كاثوليكي عميق لا يمكن أن يخالف معتقدات الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك نظرتها للعرب والإسلام، ولذلك فإن لنا فهما خاصا وتفسيرا مختلفا للعناصر الأساسية الداخلة في بناء الرواية استنادا إلى القرائن اللازمة، فالكاتب يُدخلنا في الأجواء الدينية لروايته منذ الصفحات الأولى عندما يقف بنا على صورة (الراعي، والقطيع، والمذبح، والكنيسة المهجورة،...)، كلها مشاهد تحمل عمقا دلاليا يتخطى دلالتها المعجمية الظاهرة، ونكتفي بتمثيلها على الوجه الآتي:

(١) كويلو، باولو. (٢٠٠٨)، **الخيميائي**، ترجمة: جواد صيداوي، ط١٦، طبعة خاصة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ص٢٤. (اعتمدنا في هذه الدراسة على هذه الطبعة)

(٢) إيرياس، **باولو كويلو–اعترافات مسافر حاج**، ص١٧٠.

الراعي(سانتياغو)	⟸	القديس الجديد
الكنيسة المهجورة	⟸	الدين (المهجور)
القطيع (الخراف)	⟸	أتباع المسيحية (التائهون)
الرحلة	⟸	الحياة
الحلم (الكنز)	⟸	الحقيقة الروحية (الدين)
ملكي صادق	⟸	الرعاية الدينية (المباركة)
تاجر الكريستال	⟸	مادية الكون الإيجابية
الصحراء	⟸	الصراع مع الحياة
الخيميائي	⟸	المعرفة المطلقة (الغموض)
فاطمة	⟸	الحاجة الوجدانية
الأندلس	⟸	الغرب من منظور ديني
الأهرامات	⟸	الشرق، منبع النور/الآخر دينيا.
اللصوص	⟸	الآخر (قيميا)

وباستجلاء أبرز القوى الفاعلة في المتن الروائي، نعود إلى العناصر المركزية التالية: الراعي، والخيميائي:

الراعي/ القديس/ باولو كويلو

هي الشخصية الأساسية، ومحور العمل الروائي، وعند هذا المستوى يصبح الراعي سانتياغو رمزا لرحلة روحانية، تهدف إلى تنبيه الرعايا التائهة إلى أهمية العودة إلى الدين، وهذه العودة تمثلها فلسفة الرحلة المحفوفة بالأخطار، الرحلة التي تبدأ من إسبانيا باتجاه الشرق لتنتهي من جديد بالعودة إلى مكان الكنز –الكنيسة ذاتها التي بدأ منها– أي العودة إلى الدين.

نرى أن واحدا من أهم أسباب انتشار رواية "الخيميائي" عالميا أنها تحمل في جوانبها تعبيرا عن ذوات قرائها، فالقلق الروحي، والسؤال الوجودي، وسطوة الحياة المادية، والبحث عن أسباب السكينة، والمصالحة مع الذات، كلها قواسم مشتركة عامة بين أبناء الجنس البشري، وتزداد خصوصيتها في

الغرب المادي الذي فقد ترابطه الروحي، ويعاين حالة من التفكك الداخلي، فجاءت الرواية معالجة لأزمته الروحية.

الخيميائي:

تعدُّ عناوين الروايات عند باولو كويلو واحدة من أبرز العناصر الداخلة في تركيب أعماله وبنائها، لكن "الخيميائي" –بوصفه شخصية لا عنوانا– يبقى أقل حضورا وفاعلية في الرواية من "سانتياغو"، ومع أن كثيرين سألوا الكاتب عن هذه الشخصية إلا أنه أبقى على غموضها ليضمن لها الخلود بعدما ضمنت هي أيضا له الخلود، وكان في حديثه عنها مراوغا جدا، ومن ذلك ما نجده في قوله: "حقيقة أنني كل الشخصيات التي في كتبي، الشخص الوحيد الذي ليس أنا هو الخيميائي، لأن الخيميائي يعرف كل شيء مسبقا بينما أنا لا أعرف كل شيء، هناك الكثير مما لا أعرفه"(١).

الغموض في شخصية الخيميائي هو السمة الأساسية، إلى جانب المعرفة المطلقة، والقدرة الفائقة، ويرمز إلى ذلك بامتلاكه لأسرار الكون ولغته، وبقدرته على تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة، ونرى أن الحديث عن قدرته في تحويل المعادن إنما يرمز إلى قدرته على تحويل المادي الرخيص إلى روحي ثمين، وهذا ما يصرح به الراوي حين يقول:" وظيفة الخيميائي هي ببساطة إحلال الكمال الروحي على الصعيد المادي"(٢)، وبالتأمل في هذه الشخصية وقدراتها وتأثيرها في شخصية "سانتياغو" يمكننا القول إنها تمثل "فكرة الذات الإلهية"، هذه الذات التي يمكن أن نراها أو نرى جزءا منها يحلُّ في شيء مختار من موجودات الكون، وهذا قريب جدا من فكرة الحلولية التي يتردد صداها في بعض المعتقدات الدينية، وبهذا أيضا يمكن النظر لهذه الشخصية على أنها قبس من الله، أو تجلٍ من تجليات يسوع الرب.

- ثنائية التحفيز والتثوير في بناء الخطاب الديني

كان خطاب باولو كويلو الديني في رواية الخيميائي يحتاج إلى آلية تنهض به، وتخفف من الطابع الوعظي الثقيل الذي كانت تتسم به جُل الخطابات الدينية على امتداد العصور، فعمد إلى ما نسميه "التحفيز والتثوير"، وكان التحفيز متجليا في مخاطبة الجانب المشرق من القارئ، وبث الطمأنينة في روحه، واستنهاض عزيمته، وتشكيل وعي لديه بقدرته على الاختيار، ومن العبارات الدالة على ذلك

(١) إيرياس، **باولو كويلو–اعترافات مسافر حاج**، ص١٧٠.

(٢) كويلو، الخيميائي، ص ١٦٢.

في الرواية قوله: "عندما ترغب في شيء، فإن الكون بأسره يطاوعك على القيام بتحقيق رغبتك"[١]، ويقول:"القرارات تشكل فقط بداية شيء ما"[٢]، ويقول: "لا أحد يعرف إطلاقاً كيف ينبغي له أن يعيش حياته"[٣]، ويقول: "إن الناس يدركون في سن مبكرة الغاية من وجودهم"[٤].

وتجلى التحفيز كذلك في توجيه القارئ للتسليم بالقدر والمكتوب، ودفعه للإيمان بذاته وقدرته على الوصول إلى أهدافه، يقول: "لقد كتب الرب في العالم لكل منا الطريق التي يجب عليه اتباعها"[٥]، ويقول: "والأشياء جمعيها تتعلق بعبارة واحدة هي: كل شي مكتوب"[٦]، ويقول: "إن الموت غدا مثله مثل الموت في أي يوم آخر، وإن كل يوم يأتي إما لنحيا وإما لنغادر هذا العالم"[٧]، ويقول: "عندما تكون الأشياء مكتوبة فلا مجال لتجنبها"[٨]، وهذه الفلسفات والرؤى يجمعها باولو كويلو في أيقونة واحدة يطلق عليها تسمية "الأسطورية الشخصية"، وعلى كل إنسان أن يبحث عن كنزه/ أسطورته الشخصية، وهو في كل ما سبق يربط ذلك ربطا خفيا وجليا بالدين والحاجة إلى عقيدة تسد الفراغ الروحي.

أما التثوير فكان عبر الاستفزاز الصريح والمباشر للقيم والأفكار، والإدماج التطهيري مع الشخصيات والأحداث، والمقارنات القادرة على إعادة التفكير في التموضعات الروحية والمادية، من خلال تقديم الآخر مقابل الأنا، إلى جانب الاستدعاء التاريخي للذات والآخر، والحفر عميقا في أسرارهما؛ بغية الوصول الحقيقي للمصالحة مع الذات، وإعادة تشيكل الوعي بالنسق الديني المضمر، على نحو يقصي الشعور بالإثم والخطيئة، ويخلق إحساسا بالتكفير والمحبة. يقول: "إن الساعة الأكثر ظلمة هي الساعة التي تسبق شروق الشمس"[٩]، ويقول: "إن البشر يحلمون بالعودة أكثر مما يحملون بالرحيل"[١٠] ويقول: "الأشياء قد تتغير في الحياة خلال ومضة، وحتى قبل أن يتوافر الوقت الكافي

(١) كويلو، الخيميائي، ص ٣٨.
(٢) كويلو، الخيميائي، ص ٨٥.
(٣) كويلو، الخيميائي، ص 32.
(٤) كويلو، الخيميائي، ص ٣٩.
(٥) كويلو، الخيميائي، ص٤٤.
(٦) كويلو، الخيميائي، ص١٢٦.
(٧) كويلو، الخيميائي، ص١٢٦.
(٨) كويلو، الخيميائي، ص١٢٨.
(٩) كويلو، الخيميائي، ص١٥١.
(١٠) كويلو، الخيميائي، ص١٤٣.

لتعودها"[١]، ويقول: "وما السراب إلا رغبات تتجسد فوق رمال الصحراء"[٢]،.، وهكذا نجد ثنائية "التحفيز والتثوير" في رواية الخيميائي متداخلة أو متتالية أو مستقلة وفقا لنمو الشخصية، وتطور الأحداث، في قالب فلسفي يتناسب مع الخطاب الديني الذي تنهض به الرواية.

"الأنا" وعناصر تشكيل الخطاب الديني:

إذا كانت الأنا محددة في الرواية دينيا وحضاريا كما أشرنا، فإن الآخر أيضا محدد دينيا وحضاريا، والآخر هو العربي المسلم، والرحلة الدنيوية/ الدينية مسارها الشرق، وأحداثها بلاد العرب، ونهايتها قرار العودة إلى الشرق، لكن السؤال الأول الذي يطرح ذاته في هذا السياق: لماذا اختار الكاتب الحضارة العربية الإسلامية مسرحا لروايته؟ هل هو دافع الإعجاب بهذه الحضارة وبالدين الإسلامي؟ أم أن الأمر لا يتجاوز صميم الصنعة الأدبية؟ إن الإجابة الحقيقية للسؤال تكمن في تحليل تجليات الحضور العربي والإسلامي في الرواية وخاطبها الديني.

تبدأ الرواية منذ الصفحة الأولى بداية مشبَّعة جدا بالدلالة الرمزية الدينية التي تعبر عن "أنا" صاحبها، فنجده يقول في سطورها الأولى: "اسمه سانتياغو، كان النهار على وشك أن ينتهي عندما وصل مع قطيعه إلى باحة كنيسة قديمة مهجورة، كان السقف قد انهار منذ زمن بعيد، ونبتت شجرة جميز ضخمة مكان الغرفة الملحقة بالمذبح"[٣]، وهذه الصورة الوصفية تعمل كمثير ومحفز لمعاينة البعد المأساوي للواقع الديني، وللتعبير عن "أنا" الدين.

لا يمكن للدراسة تجاوز الدلالة الدينية للاسم–سانتياغو– بسهولة، فباولو كويلو يراوغ جدا في فك ترميز الاسم ودلالته، فقد أشرنا سابقا أنه اعترف في لقاءات صحفية أنه هو ذاته الراعي "سانتياغو"، لكننا نجده يزعم في بعض طبعات رواية "الخيميائي" أنه أخذ هذا الاسم من رواية للكاتب آرنيست همنجواي، يقول في تقديم الطبعة (١٦) للنسخة العربية، وهي طبعة خاصة بمناسبة مرور (٢٠) عاما على إصدارها:" في الأفق البعيد لمحت نقطة سوداء، إنها سفينة تتهيأ للإبحار، أراها تتراقص على وقع الموج، ثمة رجل يجذب المرساة ويجهز نفسه للانطلاق في رحلة البحث عن مغامرة، كان عجوزا، لكن عينيه الزرقاوين كانتا تشعان، استطعت تعرفه، إنه سانتياغو (العجوز والبحر) لهمنغواي، كان اسم الرجل العجوز سانتياغو"[٤].

(١) كويلو، الخيميائي، ص٥٣.

(٢) كويلو، الخيميائي، ص١١٨.

(٣) كويلو، **الخيميائي**، ص١٧.

(٤) كويلو، **الخيميائي**، ص٣.

لكن المصادر من جديد تحيلنا إلى دلالة مختلفة لـ "سانتياغو"، إذ "يزعم المسيحيون أن هذا القديس كان أسقفا لبيت المقدس، وأنه ساح في الأراضي داعيا لمن فيها حتى انتهى إلى القاصية، ومات ودفن فيها، وقد أقاموا فوق ضريحه كنيسة عظيمة يحج إليها المسيحيون من جميع أنحاء العالم ولا تزال مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela هي القاعدة الدينية لإسبانيا"[١] وإلى هذه المدينة تحديدا قام الكاتب بالحج سيرا على الأقدام، ونجد كذلك أن "الأساطير الإسبانية القديمة تشير إلى أن سانتياغو، كان يخرج للمحاربين الإسبان على شكل ملاك بيده سيف، ويمتطي فرسا أبيض، ثم يأخذ في معاونتهم على قتال المسلمين في المعركة حتى يكتب لهم النصر، ولذا أطلقوا عليه كلمة Matamoros أي قاتل المسلمين"[٢]، وهذا هو الأصل الذي ترجح الدراسة أن يكون باولو كويلو قد نقله إلى روايته على نحو لا يحتاج إلى كثير تفصيل.

وتستوقفنا على نحو عميق عبارة: "شجرة الجميز الضخمة" التي نمت مكان الغرفة الملحقة بالمذبح، فهي تبدو ظاهريا عنصرا مكملا لعناصر الوصف التي يفتتح الكاتب بها روايته، لكن الكاتب يجعلنا نعود للتأمل عميقا في صورة الشجرة عندما يعود هو إلى ذكرها حين يقول:" ربما كانت الكنيسة مع شجرة الجميز بداخلها مسكونة بالأشباح"[٣]، إنه يلجأ إلى تخصيص وصف الكنيسة بشجرة الجميز على نحو يوحي بأن الشجرة تحمل دلالة لا تقل عمقا عن دلالة الكنيسة، وهو ما جعل بعض الدراسين يقف متأملا في دلالتها، فيقول ياسر منجي:" أتوقف هنا للحظة عند دلالة رمز الشجرة النابتة فوق هيكل الكنيسة، وما يتضمنه من مزاوجة بين شجرة الخطيئة المسيحية، وهي ذات الشجرة التي تتخذ مظهراً معرفياً وسرمدياً في المفهوم الخيميائي"[٤].

ولا يترك الكاتب الصورة عند هذا الحد بل يعود لشحنها بمزيد من التثوير عندما يقول في ذات الصفحة: "لاحظ أن غالبية ماشيته تفيق من النوم فور إفاقته، لكأن هناك طاقة غامضة توحد بين حياته وحياة هذه الأغنام التي تجوب البلاد برفقته"[٥]، وهي صورة ذهنية موحية بتلك المقاربة عن الرمزية الدينية لعلاقة الراعي بالقطيع والخراف وخاصة في العهد الجديد، وتتقارب صورة الراعي مع

(١) العبادي، أحمد مختار. (١٩٧٢)، **في التاريخ العباسي والأندلسي**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص٤٤٢.

(٢) العبادي. **في التاريخ العباسي والأندلسي**، ص٤٤٢.

(٣) كويلو،**الخيميائي**،ص٣.

(٤) منجي، ياسر.(٢٠٠٥)، **تجليات المعرفة الباطنية في خيميائي باولو كويلو: الأداة السحرية كمحرك لفعل الإشراق**، الموقع الرسمي للباحث:

http://altculture.blogspot.com/01/2005/infernal-criticism-٢.html

(٥) كويلو، **الخيميائي**، ص٢٣.

القطيع والشجرة إلى حد كبير مع خبر موسى كما ورد في الإصحاح الثالث من سفر الخروج، والذي فيه يتكلم موسى مع ربه، وينطلق مع رسالة دينية إلى فرعون وبني إسرائيل.

وتكشف أحداث الرواية عن صورة ضمنية للأنا/ الغربي تتمثل في ترسيخ صورة الأنا المنتصر والمتفوق على الآخر/ العربي، فالراعي الذي يعمل عند تاجر الكريستال العربي يستطيع بعبقريته وتفوقه ودون خبرة أن يغير حال المتجر، ويسوق الخير إلى صاحبه، يقول صاحب المتجر: "كنت نعمة عليَّ، وها أنا اليوم أفهم شيئا، إن كل نعمة لا تُقبل تتحول إلى لعنة"(١)، ونجده متميزا بقدرته على حسم النزاع والخصومة بين العرب المتقاتلين، ويمنع عنهم ويلات حروبهم، ونجده المختار من بين الشرق كله ليفهم الإشارات ويفسرها على نحو ينقذ القبيلة، ويجنبها البوار، وهو المختار من الخيميائي، وهو المختار من فاطمة، لنراه في مجموع الأحداث رمزا للتفوق والحكمة الغربية.

المشيئة والقدر:

تظهر فكرة المشيئة والقدرة بوصفها فكرة مركزية تحتل حيزا واسعا من الخطاب الديني لكويلو، ولا نكاد نجد حدثا أو شخصية في الرواية إلا ولها وقفة على هذا المفهوم، نقف عليها في عمق عند حديث بين التاجر والراعي:

قال التاجر أخيرا:

- كل شي مكتوب.
- ما معنى ذلك؟
- ينبغي أن تكون قد ولدت عربيا لكي تفهم(٢).

وتبقى عبارة التاجر مرافقة للراعي، ويكررها في مواقف عديدة تتطابق مع دلالتها التي فهما الراعي دون الحاجة لأن يكون عربيا أو مسلما، بل إنه يستغلها لرسم ركن أساسي في خطابه الدين يتمثل في رسالة روحانية لأتباع المسيحية تدعو إلى التسليم لإرادة الله في الكون والتي لا تتعارض من إرادة الإنسان، وهو ما يسميه "الأسطورية الشخصية" بل إن الكون كله سيساندك في الوصول إلى أسطورتك الشخصية بإشاراته ولغته الكونية وروح العالم التي تكشف لك ما كان خافيا.

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص٧٤.

(٢) كويلو، **الخيميائي**، ص٧٤.

=ويؤكد الكاتب هذه الفكرة إلى حد الوصول إلى الاعتقاد بأن الإنسان الذي يعرف "أسطورته الشخصية" قادر على أن يغير القدر، ويتضح لنا ذلك في الحوار الذي جرى عند أول لقاء بين الخيميائي والراعي:

- من أنت حتى تعمل على تغيير القدر الذي خطه الله؟

فأجاب الفتى متذكرا ما قاله الجمَّال:

- لقد شكل الله الجيوش، وصنع السيوف، وهو الذي أراني لغة الطيور، إن كل شيء كتب باليد نفسها(١).

يتماهى قدر الله ومشيئته مع قدر الإنسان، على نحو يثير فكرة حلول الذات الإلهية وتجليها في صورة بعض المخلوقات، وهي فكرة حاضرة بقوة في كثير من أعمال كويلو وتنسحب على المخلوقات فيما بينها، ومن العبارات الدالة على إيمانه بها، قوله: "توغل الفتى في روح العالم، ورأى أن روح العالم هي في روح الله، وأن روح الله فيه"(٢)، وتتكرر أمثال هذه العبارة لفظا ومضمونا على امتداد الرواية.

ملكي صادق:

تلك الشخصية الخيالية الغامضة للملك العارف بكل شيء، وشخصية الرقيب الذي يتدخل في مسار الراعي، ويلهمه في المواقف المحيرة أن يتتبع الإشارات، وهو يمثل في الموروث الغربي ملك من ملوك سالم– القدس القديمة، ويرى أحد الباحثين أن هذا الملك "هو رمز قومي ديني عند الإسبان"(٣)، لكن ما هي حقيقة "ملكي صادق أو ملك سالم؟"

في رحلة البحث عن هذه الشخصية ودلالاتها نجد من يرى أن "الملك صادق" هو درجة من درجات الماسونية تدل على تفوق الروح وتغلبها على المادة"(٤)، ولا يبدو هذا الاستدلال بعيدا عن شخصية كويلو الذي عرف عنه انضمامه لكثير من الحركات السرية والإخوانيات العالمية، وبالبحث أعمق نجد خلافا بين علماء النصرانية حول هذه الشخصية، فقد جاء في سفر التكوين: "ملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا و كان كاهنا لله العلي" (سفر التكوين، ١٤: ١٨)، وعلى هذا النحو يصبح

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص١٢٨.

(٢) كويلو، **الخيميائي**، ص١٧٠.

(٣) العلوي، **تناص الحكي في رواية الخيميائي**، ص٢٢.

(٤) عبد الحكيم، منصور، (٢٠٠٦)، **الأسرار الكبرى للماسونية وأهم الشخصيات الماسونية قديما وحديثا**، دار الكتاب العربي، دمشق –القاهرة، ج٤، ص١٠١.

ملكي صادق كاهنا على إبراهيم عليه السلام ويباركه، ونجد في سفر المزامير ما نصه:" أَقْسَمَ الرَّبُّ وَلَنْ يَنْدَمَ: "أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادَقَ" (سفر المزامير،١١٠: ٤)، وجاء في عبرانيين عن ملكي صادق أنه: "بِلاَ أَبٍ، بِلاَ أُمٍّ، بِلاَ نَسَبٍ. لاَ بَدَاءَةَ أَيَّامٍ لَهُ وَلاَ نِهَايَةَ حَيَاةٍ. بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِابْنِ اللهِ هذَا يَبْقَى كَاهِنًا إِلَى الأَبَدِ" (عبرانيين٧: ٣)، وكان مدار الخلاف من العهد القديم إلى العهد الجديد هل هو شخصية حقيقية أم لا؟ وإذا كان شخصية حقيقية فهل هو أفضل من المسيح أم أن المسيح أفضل منه؟ وهنا يتجلى الأثر التوراتي في الرواية على نحو صريح، فما يرد في الخيميائي يتطابق مع دلالات ما جاء في سفر التكوين.

ولا ينسى كويلو أدق التفاصيل المتصلة برسم جوانب شخصية ملكي صادق، فيقول السارد:" ثم فتح المعطف الذي يغطي ملابسه، فدهش الفتى مما شاهده حينذاك، ...، ذلك أن الشيخ يرتدي صدرية من الذهب الخالص ترصعها الأحجار الكريمة،..، قال الشيخ وهو ينتزع درة بيضاء ودرة سوداء من وسط الصدرية: خذهما: إنهما تدعيان أوريم وتوميم، السوداء تعني نعم، والبيضاء تعني لا، وعندما تعجز عن اكتشاف مواضع الإشارات تساعدانك، ولكن ليكن سؤالك موضوعيا باستمرار"[(١)] وهنا نجد المزاوجة بين السحر بواسطة الحجرين والدين عبر اختيار القرار، وهذا "يحيلنا مباشرة إلى نظام العرافة الديني المزاول بواسطة كهنة اليهود عن طريق "درع هارون"[(٢)]، وبالرجوع إلى سفر الخروج نجد أن السفر كله تقريبا مخصص لوصف الملابس الكهنوتية، ومن ذلك: صنع ثياب كهنوتية (سفر الخروج ٢٨: ٢–٥)، والرداء (سفر الخروج ٢٨: ٦–١٤)، والصدرة (سفر الخروج ٢٨: ١٥–٢٩)، وكلها يؤكد تفسيرها ومضمونها على الصلة التوراتية التامة بين شخصية ملكي صادق الروائية والحقيقية.

أما الحجران أوريم وتوميم فإننا نجد ذكرهما (أوريم وتُميم)، في سفر الخروج ذاته، وفي تفسير الكتاب المقدس –العهد القديم نجد عنهما كلاما كثيرا، أبرزه أن المعنى الحرفي للكلمتين هو "الأنوار والكمالات"، وقد رأى البعض أنهما شيئان صغيران (ربما حجران كريمان) يوضعان في الصدرة لكي يعرف رئيس الكهنة إرادة الله في الأمور الهامة الكهنوتية والقومية. ويرجح البعض أن الكلمتين تشيران إلى أن نور الإرشاد وكماله يأتي من قبل الله، وأن هذا يتم خلال الاثني عشر حجرًا المرصعة في الصدرة، لأنه حيث تذكر الحجارة لا يذكر الأوريم والتميم وأيضًا حيث يذكر الأوريم والتميم لا تذكر الحجارة، وعلى أي الأحوال فإن "الأوريم والتميم" يؤكدان في حياة الكاهن ألاَّ يعتمد في خدمته على

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص٤٥.

(٢) منجي. **تجليات المعرفة الباطنية في خيميائي باولو كويلو**، الموقع الرسمي للكاتب.

الأذرع البشرية والمشورات البشرية، لكنه يلجأ أولًا إلى المذبح، حيث ينسكب أمام الله طالبًا نوره الإلهي يشرق في قلبه ويكمل كل ضعف فيه، (سفر الخروج ٢٨: ٣٠). وهي ذات الفكرة التي دافع عنها باولو كويلو في روايته، وقدمها بأسلوب ديني مبسط يتوافق مع الفطرة والروح.

ومع كل هذا الغموض، وتفسيرنا السابق لرمزية "ملكي صادق" على أنها رمز للرعاية الدينية، فإن أفضل رعاية دينية يمكن أن تكون بالتأييد بالملائكة، وبذلك "فملكي صادق هو روح القدس التي رافقت سانتياغو في رحلته الدينية وهدته إلى تحقيق أسطورته الشخصية"(١)، رغم الخلاف النصراني على إمكانية أن يكون "ملكي صادق" من الملائكة.

وفي المحصلة النهائية نجد أن الأثر الديني –التوراتي والإنجيلي– حاضر بقوة على امتداد الرواية، ويرسم الصورة الحقيقية لبطل الرواية وأفكاره الروحية والفلسفية، التي تمثل "أنا" الراوي، والتي يريدها أن تندمج في القارئ لتصبح "أنا القارئ".

- الآخر في تشكيل الخطاب الديني

في مقاربة "الأنا" بالآخر سيكون الفصل التام بين الطرفين أمرا متعذرا، ذلك أنك قد تكشف عن "الأنا" لإبراز تضادها مع الآخر، أو تبرز قيم الآخر للاستدلال على مقابله في "الأنا"، وهو ما يجعل دراسة صورة الآخر وتحليلها متصلا بأبعاد العلاقة والصلة بالأنا، ولذلك يمكن القول إن صورة الآخر عند كويلو تعتمد في جانبها الديني على إبراز التناقض على المستوى الديني الخاص وعلى المستوى الديني المشترك، ويصبح التشويه والتحريف والربط التعسفي أداة من أدوات رسم الصورة المرادة.

يظهر الآخر/ العربي المسلم في رواية كويلو موافقا للصورة النمطية السلبية التي تحكم علاقة الأنا بالآخر تاريخيا، ولعل جانبا من هذه الصورة هو في أصله مما تركته صور من ساروا على هذا الدرب قبل باولو كويلو، وأخطرهم في نظر الدراسة المستشرقون والمبشرون، "فباولو كويلو لم يستطع التخلص من تابوهات الفكر والأيديولوجية الغربية، رغم زيارته لأغلب البلدان العربية والإسلامية، فهو لم يستطع التخلص من رواسب الفكرة التي كتب عنها، وأغلب الظن أنه أعاد كتابتها، كما استوحاها من كتب الأسفار والرحلة والتاريخ والأدب والسينما ووسائل الإعلام"(٢).

(١) دردير، هجيرة، (٢٠١٦)، **أثر التراث في أعمال باولو كويلو**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، الجزائر، ص١٩٩.
(٢) توتي، عبد الله، **باولو كويلو وتنميطات الاستشراق**، صحيفة القدس العربي، العدد٦٢٣٧، السنة٢١، الأربعاء٢٠٠٩/٦/٢٤، ص١٠.

إن البحث في تفاصيل صورة الآخر في الرواية يحتاج وحده إلى دراسة مستقلة، لكن هذه الدراسة ستقف عند أظهر الصور، وأكثرها انحرافا وتأثيرا، على نحو يكفي لتحديد معالم الخطاب الديني في الرواية:

صورة العرب – الغزاة.

يضع كويلو القارئ منذ التماس الأول للرواية مع الآخر على الصورة التاريخية الراسخة للعرب والمسلمين في العقلية الغربية، إنها صورة الغزاة الفاتحين، هذه الصورة تظهر في أول الرواية وتعود لتظهر في نهايتها، وما بين البداية والنهاية ستظهر مجموعة من الصورة ذات الصلة التي تعمل عملها في تقدم العرب والمسلمين، يقول السارد في أول الرواية عندما يلتقي الراعي لأول مرة بابنة تاجر عربي: "إنها فتاة ذات ملامح أندلسية، ولها شعر أسود طويل، وعينان تذكران على نحو غامض بالغزاة المغاربة القدامى"(١)، ومع أن سنتياغو الراعي، لم يرَ الغزاة المغاربة القدامى حتى يتذكرهم من عيني الفتاة، إلا أنه أراد أن يذكّر قارئه –غير العربي– بصورة العرب الغزاة، وهذه التقديم السلبي للآخر العربي المسلم سيترك أثرا داخل القارئ، ويصاحبه على امتداد الرواية.

وعند الوصول إلى نهاية الرواية، وفي لحظة معاينة الكنز، يعود كويلو ليختم الرواية بتذكير القارئ بصورة العرب المسلمين الغزاة، يقول: "وجد أمامه، صندوقا مليئا بقطع الذهب الإسبانية القديمة، وبأحجار كريمة، وأقنعة من الذهب مزينة بريش أبيض وأحمر، وتماثيل حجرية مرصعة بالماس، ومخلفات غزو نسيته البلاد منذ زمن بعيد، ونسي الغازي أن يحكي عنه لأحفاده"(٢)، وهو ما يؤكد انشغال باولو كويلو بصورة العرب الغزاة.

ولا يترك الراوي فرصة إلا ويستغلها للتذكير بالغزاة، بل إنه يتجاوز التذكير إلى التحذير من إمكانية عودة الغزاة، يقول: "إن العرب جاءوا من هناك، وفتحوا معظم إسبانيا لزمن طويل، إنه يحسب أن العرب هم الذين جاءوا بالغجر،..، إنه يعرف هذه الرياح إنها تدعى الرياح الشرقية لأنها هي بالذات التي جاءت معها العصابات،..، باستطاعة المغاربة غزو البلاد من جديد"(٣)، والصورة أوضح من التعليق عليها أو الإضافة.

(١) كويلو، الخيميائي، ص١٩.

(٢) كويلو، الخيميائي، ص١٨٦.

(٣) كويلو، الخيميائي، ص٤٢.

وصورة أخرى للغزاة نجدها في آخر سطور الرواية عندما يقول: "الريح عادت لتهب من جديد، إنها الريح الشرقية، تلك التي تأتي من أفريقيا، ولكنها لا تحمل معها رائحة الصحراء ولا التهديد بالغزو"، ومع أن المعنى الذي يثيره التذكير بالغزاة يبدو في هذه الصورة إيجابيا، لكنه على الجانب المضمر لا يبقى كافيا لتغيير الصورة النمطية عن العرب والمسلمين بأنهم غزاة، وبأن التهديد للغرب يأتي دائما من الشرق.

إن هذا الجانب من جوانب صورة الآخر–العربي المسلم سيتكامل مع جوانب أخرى لاحقة تكشف عن حقيقة نظرة الكاتب للعرب والمسلمين، ومن أمثلة ذلك الصورة التي نجدها في قول السارد في الخيميائي: "عندما كان طفلا كان يشاهد دائما في كنيسة مدينته صورة تمثل القديس يعقوب الأكبر شاهرا سيفه وهو يمتطي حصانه الأبيض، وتحت حوافره أشخاص كانوا يشبهون هؤلاء الناس (المسلمون)، كان يشعر بانعدام الراحة وبوحدة مرعبة، إذ كانت للكفار نظرات شريرة"[(١)]، ومن العجيب أن هذه الصورة محذوفة من جميع ترجمات الوكيل العربي الرسمي لمنشورات باولو كويلو، لكنها موجودة في النسخة البرتغالية، وباقي النسخ المترجمة لغير العربية، وبكل الأحوال فإن الصورة ذاتها تشير إلى أسطورة القديس "سانتياغو" التي أشرنا إليها سابقا.

وصورة أخرى تكشف حقيقة ما يحمله كويلو تجاه المسلمين نجدها في نظرته لصلاة المسلمين، يقول: "كنا نراهم يصلون بطريقة غريبة، عدة مرات في اليوم، جميع الناس، يسجدون ويضربون رؤوسهم على الأرض"[(٢)] وهذه الصورة تحمل مشاعر الازدراء والانتقاص تجاه المسلمين ودينهم، ومما يعزز هذا الفهم أنها جاءت في ذات الصفحة التي أشرنا فيها للصورة السابقة، وهي أيضا مما حذف لاحقا من الترجمات العربية.

صورة العرب– اللصوص:

يتفانى كويلو عبر رواية الخيميائي في رسم صورة قِيمية أخلاقية تتسم بالسلبية للعرب المسلمين، وهي صورة قديمة متجددة في الوعي الغربي، فقدمهم على أنهم لصوص، لصوصيتهم فردية وجماعية، تبدأ ملامح رسم هذه الصورة من خلال حديث الفتى العربي الغريب للراعي سانتياغو عندما التقيا مصادفة في المقهى، حيث يقول له عن صاحب المقهى: "إنه يطمع في مالك، فطنجة ليست كسائر مناطق أفريقية، نحن هنا في ميناء، والموانئ جميعها مغارات لصوص"[(٣)]، ولا تنتهي هذه الصورة عند

(١) كويلو، باولو. (٢٠٠٥)، **الكيميائي**، ترجمة: عبد الحميد الغرياوي، طبعة برينتار، برشلونة، ص٥١.
(٢) باولو كويلو، **الكيميائي**، ص٥١.
(٣) كويلو، **الخيميائي**، ص٥١.

هذا الحد، بل يؤكدها كويلو عندما يعطي الراعي نقوده للفتى العربي الذي التقاه في المقهى من أجل أن يأخذه إلى الأهرامات، لكن العربي يراوغه في السوق ويهرب سارقا كل ما يملكه، وهكذا يظهر العرب بصورة اللصوص، الذين يخونون الثقة ولا يحفظون العهد.

يتكرر مشهد لصوصية العرب في الصحراء، عندما يقبض بعض محاربي القبائل على الخيميائي والراعي، ويقومون بتفتيشهما وسلب كل القطع الذهبية التي كان يملكها الراعي.

ولا تنتهي صورة العرب اللصوص عند هذا الحد، بل نجدها وفقا للمسار الدائري الذي يعتمده كويلو تعود وتظهر من جديد على نحو عميق مأساوي في نهاية الرحلة وتحديدا عند الأهرامات، فبعد أن يبدأ الراعي الحفر لاستخراج كنزه قبضت عليه عصابة من اللصوص، وفتشوه وسرقوا ما معه، ثم:" أرغموه على متابعة الحفر، ولما لم يجدوا شيئا انهالوا عليه ضربا، ضربوه حتى أرسلت الشمس أولى شعاعاتها"[(١)]، هذه الصور للعرب اللصوص لم تأت بريئة أو مصادفة، وإنما كان الكاتب يتقصدها لتعزيز صورة هو مقتنع بها ومقتنع بأنه يشارك بها أغلب بني جنسه ودينه.

الصورة المحرفة– مرآة للإسلام:

يحضر الدين الإسلامي في رواية "الخيميائي" فكرا وممارسة على ذات النسق الذي يتبناه كويلو، ويجهد الكاتب في رسم صورة للإسلام منتزعة من ممارسات أتباعه، ومناقشة بعض فلسفاته، لكننا نراها في أغلبها صورا سلبية تهدف إلى تكريس صورة بعينها.

فصورة العرب الغزاة التي عرضناها هي صورة دينية بامتياز، تعزز فكرة الخوف من انتشار الدين الإسلامي في العالم بحد السيف[(٢)]، وستبقى هذه الصورة صالحة دائما للعمل كمثير للوعي الغربي بالخطر الذي يتهدده.

وحتى في صورة العرب اللصوص نجد الكاتب وبطريقة أقل ما يقال عنها إنها خبيثة يربط حادثة السرقة الأولى بالدين الإسلامي ربطا غير مباشر فيقول السارد: "لا أثر لمرافقه في أي مكان، لا أثر له على الإطلاق، حاول أن يوهم نفسه أن كلا منهما غاب عن نظر الآخر مصادفة، وقرر أن يبقى في مكانه آملا بعودة الآخر، بعد برهة صعد رجل إلى أحد تلك الأبراج الشهيرة وبدأ يؤذن، ركع

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص١٨٠.

(٢) سعيد، إدوارد، (٢٠٠٨)، **الاستشراق – المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة: محمد العناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الفصل الثاني.

الموجودون في المكان وراحوا يصلون"[١]، هذه هي الإشارة الساخرة التي تطعن في الدين وتطعن في أتباعه بعد أن فشل الدين في تهذيبهم.

وتظهر صور أخرى تهدف لكشف التباين بين تعاليم الدين وممارسات أتباعه، كتلك التي نجدها في الرواية حين يلجأ الراعي الجائع والبائس إلى تاجر الكريستال لطلب العمل مقابل طعامه، وبعد أن ينتهي الراعي من تنظيف الكريستال يجري بينهما هذا الحوار[٢]:

قال التاجر مبتسما: لم يكن من الضروري أن تنظف شيئا، إن القرآن يلزمنا بإطعام أي جائع.

- لم تركتني أقوم بهذا العمل إذن؟
- لأن الأواني كانت متسخة، وكل منا بحاجة إلى تنظيف رأسه من الأفكار السيئة.

هذه صورة تظهر المفارقة في الدين الإسلامي، ذلك الدين الذي يأمر بأشياء يعرفها أتباعه، لكنهم لا يجدون حرجا في التخلي عنها مقابل مكاسبهم الدنيوية الخاصة، أما العبارة الأخيرة في ردّ التاجر، فهي من المضمر الذي لا يحمل براءة من الطعن والقدح.

ونجد صورا أخرى تتصل بالدين تحمل مغالطات وتشويها للفكر الديني، كفكرة الحب الذي ينشأ بين سانتياغو وفاطمة العربية المسلمة، وهو حب واتصال وممارسة تتم تحت سمع القبيلة العربية وبصرها دون أن يكون لمعيار الاختلاف الديني حضور فيه، ومع ذلك لا يترك الكاتب الربط الديني مطلقا، فعندما يلتقي لأول مرة بفاطمة ويسألها عن اسمها، تقول له: "إنه اسم بنت النبي، وقد نقله محاربونا إلى هنا"[٣]، يربط الكاتب بين الاسم ونقل المحاربين له، لتعزيز جانب سابق من صورة المحاربين العرب الغزاة ودينهم.

ومن أغرب الصور التي نقف عليها صورة الخميائي، العربي المسلم مالك المعرفة المطلقة، ووجه الغرابة التي نتحدث عنها يتصل على نحو وثيق بالدين أيضا، فعندما زار الراعي الخيميائي في خيمته: "فتح الخيميائي قنينة وسكب منها سائلا أحمر اللون في كأس ضيفه، كان السائل نبيذا من أجود أصناف النبيذ الذي لم يذق مثيلا له.

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص٥٢ -٥٣.

(٢) كويلو، **الخيميائي**، ص٦١ -٦٢.

(٣) كويلو، **الخيميائي**، ص١١٣.

- ولكن النبيذ محرم شرعا.
- قال الخيميائي: ليس الشر فيما يدخل فم الإنسان، بل هو ما يخرج منه[١].

الموقف من الخمر هو موقف ديني بين النصرانية والإسلام، وهنا نرى التشويه المتعمد للفكر الديني لجعله يتوافق مع الفكر النصراني، فجاء رد الخيميائي ردا فلسفيا متوافقا مع معتقد الراعي، ومتناقضا مع التعاليم الإسلامية التي تحرم الخمر.

وحتى على سبيل المقارنة التي تتصل بجانب ديني، نجد أن بطل الخيميائي ينذر نفسه وماله من أجل تحقيق حلمه، في حين نجد أن العربي المسلم لا يملك الإرادة والحافز لتحقيق أحلامه حتى لو كانت هذه الأحلام أحلاما دينية، يقول تاجر الكريستال المسلم للراعي في حديث بينهما: "الفريضة الخامسة على كل مسلم صادق الإيمان، أن يقوم في حياته برحلة واحدة على الأقل إلى مكة المكرمة،.، كنت آمل أن أغدو يوما ما على قدر من الثراء لأزور مكة، وقد بدأت بالفعل أكسب المال،...

- ولم لا تذهب إلى مكة الآن؟
- إنني أخاف إن حققت حلمي ألا يبقى لي بعد ذلك سبب للعيش[٢].

وبذات التفسير الفلسفي الذي يشوه معالم الدين وأركانه، نجد التاجر يخسر في مقارنة رحلة دينية تشكل فرضا في معتقده مقابل رحلة خلف حلم دنيوي.

صورة العرب– التشويه والتنميط:

يعمد باولو كويلو في رواية الخيميائي على تشويه بعض الصور التي تحمل بعدا دينيا وحضاريا في مقاربة "الأنا" والآخر، ويستغل الصورة النمطية في الوعي الغربي لترسيخ أنماط سلبية وتأكيد ارتباطها بالآخر دينيا وحضاريا، ونحاول في الآتي الوقوف على نماذج دالة تكشف أسلوب باولو كويلو في إنتاج خطابه الديني والحضاري المضاد.

ألف ليلة وليلة/ لن يكون في الحديث عن تأثير ألف ليلة وليلة في الأدب الغربي أي إضافة معرفية جديدة، لكن الجانب الخطير في تأثير ألف ليلة وليلة هي تلك الصور التي نقلها الغرب إلى ثقافته على أنها انعكاس ومرآة للشرق العربي الإسلامي، فأصبحت الأجواء السحرية والأسطورية التي

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص١٣٤.

(٢) كويلو، **الخيميائي**، ص٧٠.

تتجلى في حكايات ألف ليلة وليلة، ونماذجها البشرية مدلولا على الحضارة العربية وإنسانها، ويستغل كويلو اطلاعه على حكايات ألف ليلة وليلة، وعلى الأنماط والصور القارة في وعي المتلقي الغربي لترسيخ هذه الصور، ونراه يضع قارئه على هذه الفكرة مع وصول الراعي إلى الصحراء العربية، وتماسه مع أهلها برفقة رجل إنجليزي، فعندما يُقتادان للقاء زعيم القبيلة، "قال الإنجليزي وهو متلهف للقاء الخيميائي في أقرب وقت ممكن، لكأننا في عالم ألف ليلة وليلة"(١)، ثم تتوالى الأحداث بعد الوصول للواحة على نحو أسطوري خيالي حافل بالغموض والدهشة والعجائبية، لتجعل من الرحلة رحلة سحرية مماثلة لما ألفه القارئ عن رحلات ألف ليلة وليلة.

المرأة العربية/ يقدم باولو كويلو المرأة العربية ضمن الصورة النمطية المنتزعة من كتب الحكايات، والأساطير، بل يتعمد الكاتب تشويهها، فنراها نقطة هامشية لا يكاد حضورها "يتجاوز أن يكون تعبيرا عن الحب في مفهومه الجنسي، وليس الحب في مفهومه الروحي السامي،...، ففاطمة لا تكاد تكون أكثر من نقطة عبور ليس إلا، لحظة يعيشها البطل بكل جوارحه، ثم يمضي مقفلا في اتجاه حلمه، دون أدنى إحساس بالفراق أو الحنين. هكذا الجنس؛ فلا يغدو أن يكون أكثر من لحظة عابرة يعيشها الإنسان، يشبع فيها نزوة عابرة، ثم يمضي خفيفا صافي الذهن"(٢).

هذه هي صورة فاطمة، صورة عن المرأة العربية، التي "تبدي رضاءها دائما، واكتفاءها "بالمكتوب".. لا ضرر ولا ضرار! العربي دائما راض وغبي وراغب والأوروبي يستفيد"(٣)، وبعد لقاء الراعي بفاطمة وسؤاله عن اسمها، جاء في اليوم التالي وانتظرها عند البئر ثم قال لها: "جئت لأفضي إليك بأمر بسيط للغاية، أود أن تكوني زوجتي إنني أحبك"(٤)، ونجد أمر الزواج بين شاب وفتاة لم يتعارفا بعد هو أمر بسيط للغاية، والحب والاعتراف به لا يحتاج إلا ليوم وليلة، أي دلالة خلف هذا الأمر يمكن أن يكونها القارئ العربي وغير العربي؟ مع استحالة أن يكون هذا هو منطق الحب والزواج، وتنتهي الرواية بقرار العودة إلى فاطمة، الذي قد يكون حقيقة قرار العودة للمتعة بعد أن حقق حلمه وحصل على كنزه.

الصحراء العربية/ يعمد كويلو إلى أسطرة الفضاء المكاني العربي، ويحرص على حصره في صورة الصحراء بكل الدلالات التي عرفت العقلية الغربية الصحراء بها، بل إن الراعي يرى أن بلاد

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص١٠٧.

(٢) توتي، **باولو كويلو وتنميطات الاستشراق**، ص١٠.

(٣) توتي، **باولو كويلو وتنميطات الاستشراق**، ص١٠.

(٤) كويلو، **الخيميائي**، ص١١٤.

العرب بلاد عجيبة حتى قبل أن يصل الصحراء، فنراه يقول عند وصوله إلى طنجة:" يا لها من بلاد عجيبة أفريقية هذه"(١) دون أن يفسر الوجه العجائبي فيها، ثم نراها بصورة أسطورية عجائبية، تقول فاطمة:" كنت أحلم في طفولتي أن الصحراء قد تحمل لي ذات يوم أجمل هدية في حياتي، وها هي الهدية بين يدي، إنها أنت"(٢)، ويتحول الراعي في الصحراء إلى ريح عاتية، ويخاطب الشمس، ويلتقط الإشارات، ويغوص في روح الكون، يقول الراعي: "إذا كان ثمة شيء يستطيع مساعدته على الفهم فهو الصحراء فحسب"(٣)، ولا تغيب صورة الصحراء النمطية بوصفها أرض ترتبط بالقسوة والجدب، صحراء العرب والمسلمين التي هي انعكاس لهم، يقول السارد على لسان فاطمة:" إن الصحراء تأخذ رجالنا ولا تعيدهم أحيانا، يجب أن نتعود ذلك"(٤).

المجتمع العربي/ينتقي كويلو مجموعة من الصور والموافق المنتزعة من البيئة العربية ومجتمعاتها على نحو يخدم خطابه، ويكرس الصورة السلبية التي يريد أن يرسمها للعرب والمسلمين، ومن ذلك على سبيل المثال وصفه للحياة في مدينة طنجة لحظة وصوله إليها، يقول: "كان يجلس في مقهى يشبه سائر المقاهي،...، ثمة رجال يدخنون ما يشبه الغليون العملاق (النرجيلة) ينقل من فم إلى فم"(٥)، وهي صورة لممارسة تثير الاشمئزاز في النفوس، ثم يشير إلى المشروب العربي الشاي، يقول السارد:" اقترب صاحب المقهى منه وأشار بإصبعه إلى شراب قدمه لزبائن الطاولة المجاورة، وهو شاي مر الطعم، لكنه يفضل احتساء النبيذ"(٦)، ومع أننا لا نجد سببا مقنعا لرسم هذا الانطباع عن الشاي العربي، إلا أنه يظهر لنا تعمده ذلك لإدخال الشاي في مقارنة مع النبيذ، يقول في الحوار الذي دار بين الراعي والشاب الذي التقاه في المقهى(٧):

- اجلس لأطلب لك شيئا، أما أنا فسوف أطلب نبيذا، إنني امقت هذا الشاي.
- لا يوجد نبيذ في هذه البلاد، لأن الدين يحرمه

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص٤٩.
(٢) كويلو، **الخيميائي**، ص١١٦.
(٣) كويلو، **الخيميائي**، ص١١٨.
(٤) كويلو، **الخيميائي**، ص١١٧.
(٥) كويلو، **الخيميائي**، ص٤٩.
(٦) كويلو، **الخيميائي**، ص٤٩.
(٧) كويلو، **الخيميائي**، ص٥٠.

وبهذا يتبين لنا أن حتى أبسط المقارنات لا تنفصل عن الدين.

ويظهر جانبا من وعي العرب بالعلم مقابل الدين في الحوار الذي يجري بين الرجل الإنجليزي وأحد سكان الواحة العرب، يقول:

- هل تعرف أحدا يعالج المرض في هذه القرية؟
- أجاب الرجل بادي الخوف من هذين الغريبين: إن الله وحده هو الذي يشفي من جميع الأمراض، أنتما تبحثان عن السحرة، وبعد أن تلا بعض الآيات القرآنية تابع طريقه"[١].

ويمكن لنا أن نتتبع عشرات الصور السلبية التي تحاول إبراز المجتمع العربي الإسلامي على النحو الذي يوجهه الكاتب ويريده، كصور القبائل، وقوافل الجمال، والخيام، غيرها.

مجمل القول فيما عمله كويلو أنه كان يتقصد الإساءة والتشويه، وكان ينطلق من أفكار وتصورات عن العرب والمسلمين أراد استغلالها في ترسيم معالم خطابه الديني، "لا شيء في رواية الخيميائي بريء، ذلك أن باولو كويلو يقدم صورا وأحكاما قاسية عنصرية شعوبية في حق المغاربة والمسلمين الفاتحين للأندلس، وهي صور وأحكام ما كانت لتصدر عن مثقف تشرب إلى حد بعيد روحانية الشرق وأحلامه"[٢]، والواضح جدا أن "الخيميائي" لم يكن أكثر من عمل جمع فيه الكاتب "كل الكليشهات المعروفة عن الشرق، ولم تكن لكويلو أدنى معرفة عن الآخر، بل صور الأشياء كما وصفت له؛ حتى وإن زار الشرق فإنه لم يأخذ أدنى فكرة عن الآخر،...، إننا إذا ما تأملنا في القصة، وجدنا الكنز في الغرب (إسبانيا) لا في الشرق (الرحلة) كما تقول القراءة السائدة، وما الرحلة إلا درس تأكد من خلاله لسانتياغو أن لا شيء في الشرق، سوى الجواري الراغبات الراضيات، واللصوص، والغباء.. ويبقى الغرب دائما المكان اللائق الطاهر والنظيف للجواهر وأنفس ما على الأرض من كنوز"[٣]، وهو الأمر الذي اجتهد الكاتب في تأكيده للقارئ غير العربي وغير المسلم.

(١) كويلو، **الخيميائي**، ص١١٠.

(٢) العلوي ، **تناص الحكي في رواية الخيميائي**، ص ٢٨.

(٣) توتي، **باولو كويلو وتنميطات الاستشراق**، ص١٠.

استنتاجات وتوصيات:

بعد هذه النظرات المتباينة في رواية "الخيميائي" لباولو كويلو، ترى الدراسة أن جزءا أساسيا من نتائجها قد ظهر في محاور المعالجة التي وقفت عليها، وفي سعيها لختام مطالبها، تقف على أبرز الاستنتاجات التي كشف عنها تحليل الخطاب الديني ورموزه في الرواية، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- باولو كويلو في رواية الخيميائي "مبشر نصراني"، و"مستشرق غربي"، يلتقي مع المبشرين والمستشرقين الآخرين في الأهداف، والنظرة للأنا والآخر دينيا وحضاريا، لكنه يختلف معهم في الأسلوب، ذلك أنه "مبشر ومستشرق" حداثي النزعة، استفاد من تجربته الدينية الأولى لتفادي الوقوع في أخطاء من سبقوه، ولذلك يختار طريقة غير مباشرة لبث خطابه الديني، تتمثل في التحفيز والتثوير، ومخاطبة الناس بما يجذبهم ويشركهم معه في الرؤية والخطاب، فيتكئ على الغموض والترميز والواقعية السحرية لنقل القارئ إلى عوالم خطابه.
- تتجلى العبقرية الأسلوبية ذات النزعة الدينية في رواية الخيميائي وفي غالبية أعمال باولو كويلو الروائية، بإعادة بناء الوظيفة الأدبية، فيعيد للأدب وظيفته الدينية الأساسية، المتمثلة في فكرة "الخلاص" اعتمادا على الذات ودون حاجة أساسية لوسيط. ومن هنا يؤمن باولو كويلو بأن الإنسان قادر في مرحلة من حياته أن يعتمد على حدسه في الاختيار والوصول إلى الغاية.
- يتجلى الخطاب الديني في الخيميائي عند الوقوف على فلسفة معاصرة هي فلسفة التحول/ التحولات على المستوى الداخلي والخارجي، والمادي والروحي عند الإنسان الغربي، وفيها يتماهى الكاتب عبر روايته مع فكرة المصلح الديني الذي يسعى للإصلاح الذاتي للرعية، لإيمانه بقدر الإنسان على إصلاح ذاته دون الحاجة للعون والمساعدة من الآخرين.
- يرفض باولو كويلو في خطابه الديني فكرة الوصاية والهيمنة على الدين، لأنه يرى أنها لم تعد تناسب عقل الإنسان الغربي أو روحه، ومن هنا تصبح ثيمة الإرادة الذاتية والمشيئة الخاصة بما يسميه "الأسطورة الشخصية" هي المحرك الأساس في تفعيل الخطاب، وتحقيق أهدافه.
- إن المسار الفلسفي الصوفي الدائري الذي بنيت عليه الرواية يكشف عن وعي خاص لدى الكاتب بأن الدين سيبقى هو الأساس الذي ينطلق منه الإنسان في رحلته لاستعادة ذاته وسكينته الروحية، وبهذا فإن الدين رحيم وضع لخدمة الإنسان ولا يطلب من الإنسان أن يخدمه كما كان رائجا.

- وضعية المقارنة بين الأنا النصراني والآخر المسلم تكشف عن تفوق الأنا وتميزها، وستبقى نقاط الاختلاف الجوهرية بين الطرفين عاملا حاسما في استحالة الوصول إلى حالة دائمة من التعايش والتآخي، مع عدم وجود ما يمنع من الانفتاح الواعي على الآخر، وتقبله في حدود نفعية براغماتية.
- إن الخطأ أو التعمد في تحريف صورة العرب والمسلمين وتشويهها، كان أمراً إيجابيا لصالح الخطاب الديني الذي انشغل به باولو كويلو، ويمكن أن يصبح أمرا إيجابيا لصالح الآخر المعتدى عليه إذا توافر لدينا – العرب والمسلمين– الوعي الكامل بصورتنا عند الآخر، ونزوعه نحونا، دون الوقوف عند حدود الأفق الضيق لمعالم الإشراق في الصورة.

وإن كان للدراسة أن تقدم توصياتها، فإنها ترى:

- أن الخطاب الديني الذي يتصل بالإسلام في أعمال باولو كويلو يحتاج إلى دراسة شاملة، تكشفه وتحلله وتنقده، وترد على ما فيه من مغالطات دينية وتاريخية وحضارية.
- أن ممارسة باولو كويلو للسحر الأسود، وانضمامه لمنظمات سرية وإخوانيات عديد كمنظة (RAM)، وولعه بالغيبات العالمية، هو مما يحتاج إلى دراسة وتتبع، لبيان أثره في فكر الكاتب وأعماله، وصلته أيضا بنظرة الكاتب للدين الإسلامي.
- حتى ينتهي مشروع باولو كويلو الثقافي الأدبي الديني، يمكننا القول بموضوعية: إن مواقف باولو كويلو المعلنة اليوم من العرب والإسلام وقضاياهما تختلف تماما عن تلك التي وقفنا عليها في رواية "الخيميائي"، لأسباب تحتاج إلى تحليل وتفسير، وعلى وجه الخصوص بعد اختياره رسولا للسلام من منظمة الأمم المتحدة في عام ٢٠٠٧.